مقـاطعـة الصهيونيين للعمال العرب (في خطاب له بتاريخ ١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٣)[١]، باعتبـارهـا محاولة صارخة لتهميشهم وتغييبهم. وقد وصل ادراك احاد هعام الذروة حينما ادرك الحاخام الروسي ان حلم العودة الى صهيون، كما فسره الصهيونيون، وكما اخذ في التحقق، «يؤدي الى تدنيس ترابها بدم الابرياء»، اي انه رأى الجثة التي يحاول الصهيونيون اخفاءها. لذا، فعلى الرغم من ان فكر احاد هعام فكر عنصري نيتشوى الى اقصى درجة (فهو صاحب فكرة اليهود «كأمة متفوقة»، وهو صاحب فكرة تحويل فلسطين الى مركز ثقافي لليهود واليهودية)، الا ان العربي الحقيقي فرض نفسه فرضا على وعيه. ولذا، لم يملك الحاخام الا ان يقول: «ان الله قد انزل بي العذاب، اذ مدّ في حياتي حتى ارى، بعين رأسي، انني تدحرجت عن جادة الصواب... اذا كان هذا هو الماشياح (المسيح المخلص اليهودي)، فانني لا اود رؤية عودته ؟»[٢]. اي انه لا يود رؤية تحقيق الحلم (او الكابوس) الصهيوني. فتحقيق الحلم يعني تغييب العربي، وتغييب العربي، كما رأى هو نفسه، يعني القتل والقتال.

ومن اهم المفكـرين والمستوطنين الصهيونيين الذين تخطوا التحيز الادراكي الصهيوني ورأوا العربي في كل تركيبه التاريخي، اسحق ابشتاين، احد كبار المسؤولين عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين، والذي حذر الصهيونيين من سطحيتهم «وعجزهم عن الغوص لباطن الامور» [٣]. والذي حاول ان يبين لهم ان الحق قد يكون في جانبهم من الناحية القانونية (السطحية)، ولكن الموقف يصبح اكثر تركيباً ان تمت رؤيته في اطار سياسي ـ اخلاقي[٤].

وقـد حذر، في محاضرة له القاها على بعض مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥)، من الموقف الصهيوني الشائع (البربري في واقع الامر) القائل بأن فلسطين غير مفلوحة بسبب «نقص في الايدي العاملة او كسل السكان»، وبيّن ان «ليست هناك حقول مقفرة، بل على العكس، يحاول كل فلاح ان يضيف الى ارضه من ارض البور المجاورة لها... وعندما نشتري قطعة ارض كهذه، نبعد عنها مزارعيها السابقين تماماً... فنحرم بهذا اشخاصاً بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة، ونسلب لقمة عيشهم... ولا يزال حتى اليـوم يرن في اذني نحيب النساء العربيات، عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة، وهي روش بينا، وانتقلت للسكن في حوران شرق نهر الاردن. فقد ركب الرجال على الحمير ومشت النساء وراءهم باكيات، يملأ السهلَ نحيبُهن. وللحظات وقفوا وقبلوا الحجارة والتراب... ان شراء (اراضيهم) على هذا الشكـل يترك في قلوبهم جرحاً لا يندمل. وسيذكرون، دائماً، ذلك اليوم الملعون الذي انتقلت فيه املاكهم الى ايدى الغرباء... لأنه اذا كان هناك فلاحون يروون حقولهم بعرقهم وحليبهم، فهم العرب... وفي النهاية، سيعملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب...». وبعد ان يرسم ابشتاين صورة الفلاح العربي الحقيقي الذي يحب ارضه، ويكد ويتعب من اجلها، يضعه في اطار سياسي عربي تاريخي واسع: «وهذا الشعب، الذي لم تستنفد المدنية حتى الآن قواه وتضعفه، ليس الا جزءاً صغيراً من الشعب الكبير الذي يسيطر على كل المناطق المجاورة... سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر... ولهذا، من المستحسن ان نعرف من هو الفريق الآخر... وان نأخذ بالحسبان قوتنا والقوى التي تواجهنا... ويمكننا القول انه، حتى الان على الاقل، لا توجد حركة عربية بالمفهوم القومي والسياسي لهذا التعبير. ولكن لا حاجة لهذا الشعب لمثل هذه الحركة: انه كبير، وكثير، ولا حاجة لبعثه، لأنه لم يمت ابداً، ولم ينقطع وجوده يوماً، ويفوق، في تطوره الجسدي، كل شعوب اوروبـا... ينبغي الا نستخف بحقوقه... والا نستغل ضده خبث بعض اخوته الذين يظلمونه. لا تتحرشوا بأسد نائم ! ولا تأمنوا جانب الرماد الذي يغطي الجمر، فقد تنطلق شرارة تسبب حريقاً لا يطفـأ». ولم يكتف ابشتـاين بالشكوى والنحيب على طريقة احاد هعام، بل قدم توصيات محددة،